# قراءة نقدية لمقالة " الزواج"
# من كتاب"مع حمار الحكيم" لأحمد رضا حوحو

**أ. عقيلـــة بالي محجوبـــي**
قسم اللغة العربية كلية الآداب
جامعـــة سطيـــف

**ملخص:**
تحاول هذه الدراسة قراءة أدب أحمد رضا حوحومن خلال تحليل مقالة "الزواج" من كتاب "مع حمار الحكيم" والتي يتعرض فيها إلى نقد المجتمع الجزائري إبان الفترة الاستعمارية من خلال تقديم مجموعة من المواقف والآراء حول المرأة،الزواج الأجنبيات،التعليم....
فهو يتعرض لهذا بأسلوب ساخر مصورا للمرأة المتسلطة على الرجل،المتعسفة والمتقلبة المزاج لينتهي إلى رفض فكرة الزواج كلية.
وقد قدم هذه المواقف بلغة بسيطة وألفاظ واضحة في قالب الحوار ساخرا مع حماره متقاطعا مع الكاتب توفيق الحكيم في فكرة توظيف الحمار للتعبير عن موقف معين لخلق جومن الاثارة ولفت انتباه المتلقي.

**Résumé :**
L'intérêt dans cette étude est porté vers une des personnalités littéraires algériennes d'expression arabe dans le domaine du conte.
L'auteur a analysé des phénomènes sociologiques au temps du colonialisme tels que l'enseignement, la politique, le mariage aux étrangères..., et ce avec un style littéraire très proche de l'idée de Toufik El Hakim relative à l'image de l'animal qui présente des contes avec un style moqueur influençant le lecteur qui quant à lui éprouve un plaisir esthétique dans sa lecture

يعدّ الكاتب الجزائري أحمد رضا حوحوأحد رواد القصة الجزائرية الحديثة وكانت له بصمات كثيرة في إرساء أسس الأدب الجزائري إلى جانب كثير من الكتاب والأدباء أمثال أبوالعيد دودووعبد الله ركيبي وزهور ونيسي وغيرهم.. وقد أشاد الأستاذ عبد الرحمن شيبان في مقدمة كتاب "مع حمار الحكيم" لرضا حوحوبأدب هذا الكاتب وذكر بأنه يتميز بأسلوب الصدق الفني وتوجيه النقد الاجتماعي دون تكلف،فهوينظر إلى عمق الأشياء ويدقق تدقيقا موفقا ويعالج المشكلات والشؤون بطريقة صادقة،فقد كانت نظرية يحيطها التفاؤل والتقدير. [1] وقد

ظل الكاتب رضا حوحوينظر إلى الأديب على أنه "هوالذي يستطيع أن يصل إلى أعماق النفوس فيعللها،وإلى أعماق الأشياء فيصورها؛ وهوالذي يجعل من أدبه لغة روحية يخاطب بها أرواح الغير ويعبّر بها تعبيرا صادقا عن مشاعره وتصوراته دون أن يحسب حسابا لسخط هذا أورضا ذاك" [2].

وسنتناول في هذه الدراسة إحدى المقالات ذات الطابع القصصي يحاول فيها الكاتب تحرير مجتمعه من الخرافات والأفكار البالية التي نسجت حول العقيدة الدينية وهذه المقالة تحمل عنوان "الزواج" يتناص فيها الكاتب رضا حوحومع الكاتب المصري توفيق الحكيم في كتاب له يحمل عنوان "حماري قال لي".

والمقالة ذات الطابع القصصي صورة واضحة لظروف الكاتب الخاصة من جهة وظروف مجتمعه من جهة ثانية. فالكاتب كمثقف يعاني من الظلم الاجتماعي وعدم تقدير لأعماله الفكرية،وهذه محاولة مؤسفة تمزق الكاتب وتؤلمه فهويعيش في ضنك مادي مع أنه بذل أقصى جهوده في خدمة المجتمع،ومع عدم تقدير عصارة فكرة فهوراض قانع بنصيبه،يبدوهذا من خلال قوله:

"-حقا ما تقول.. فلا تنفع عصارة هذه الأفكار إلا لإيقاد النار وهي مع ذلك كل ثروتي وعزائي-

ثم قلت – دعنا من هذا وقل ما سبب هذه الزيارة المبكرة" [3]

كما نعرف إحساساته الخاصة تجاه المرأة وموقفه منها من خلال عرضه لهذه القصة.

ونلمس من خلال المقال ظروف المجتمع الجزائري الذي كانت تسوده في عصر الكاتب قيم وأفكار ونظم معينة تدل بأن البلاد كانت مستمرة وبأن ثمة إحساس بالنقص عند المثقف،وكذلك حالة المرأة المحرومة من الثقافة. ونلخصها بأن هناك من الجزائريين من تزوج بأجنبية وأثر هذا على كيان المرأة. فالمقال إذن عرض ظروف الكاتب الذاتية ونظرته للأشياء كما فسّر ظروف المجتمع الذي يعيش فيه الكاتب.

ولكن ما هوالأسلوب الذي اعتمد عليه الكاتب؟

بدأ الكاتب مقالة بأسلوب السرد حيث أعلمنا أن حمار الحكيم زاره مبكرا وتساءل لماذا،وجعلنا الكاتب نتساءل معه،فعلا لماذا جاء الحمار في هذا الوقت المبكر ومن خلال أطراف الحوار الذي استعان به الكاتب لإيضاح اختاره بعد أن اكتشف سرّ الزيارة شيئا فشيئا.

وهذا الأسلوب الذي عمد إليه الكاتب استطاع أن يعالج هذا الموضوع الشائك بطريقة مشوقة حيث جعلنا نتابع معه الحوار جملة فجملة متتبعين نفسية

الكاتب وتعبيره عن شخصيات فكره،ودقائق ملاحظاته حتى وصل بنا إلى النهاية حيث جعلنا نتلهف الوصول إلى نتيجة الحوار وبالتالي الفكرة العامة التي يريدها الكاتب،ونستطيع أن نقول: إن هذا الأسلوب الحواري وافق نفسية الكاتب التي تميل إلى الحيرة والتذبذب والتردد مما جعله أحيانا يقحم موضوعات ثانوية لا تخدم بطريقة مباشرة الموضـــوع الأصلـــي،ولولا الحوار لما استسغنا إيرادها في هذا المقال كوصف المفكرين بالفقر المادي وغيره،ومع هذا الحوار فإننا نلمس تذبذباتها.. ربطها بالموضوع الأصلي.

ويبدوأن الكاتب شغف بإصلاح بعض أوضاع مجتمعه وأهداف الوطنية فكانت لديه أهم من النواحي الفنية. فاعتمد كثيرا على الأسلوب المباشر في السرد والعرض وإقرار الحقائق ولم يلجأ إلى الصور البيانية إلا في القليل النادر كقوله: "قلت –كنت تتهمنا نحن البشر بالأنانية وحب الذات وإذا بك غارق فيها لأذنيك الطويلتين.

قال: أبدا.. ليس هذا الأمر من الأنانية في شيء،فإنني لم أوثر نفسي،وإنما أردت أن أكون جميع أبناء الفصيلة ومعظم ما هناك أنني أحسست بنقص في شخصيتي أحببت إتمامه" [4] .

فهذه الصورة البنائية،وهي استعارة،تدل على المبالغة في التمسك الشديد بالأنانية.

وإذا كان الكاتب يعتمد الأساليب الإنشائية المختلفة فإنه يلجأ أيضا إلى اعتماد الأسلوب الخبري في أحيان كثيرة،كاعتماده عليه في المقدمة التي استهل بها مقالة فهوفي حالة إخبار مما وقع،وهومجيء الحمار في الصباح الباكر فاستلزمه هذا الاعتماد على الأسلوب الخبري.

ونجده يعمد إليه أحيانا في فقرات حواره حين تدعوالحاجة إلى التقرير كقوله:

" قال: جئتك في مسألة خاصة " [5]

" قال: جئت أستشيرك في أمر مهم " [6]

ويعتمد الأساليب الإنشائية في مواضعها فتارة نجدها استفهامية كقوله: " ما هذه الزيارة المبكرة،وهل عندك نقود حتى يطمع الناس في الاستدانة منك ؟ فإن كل ثروتك هذه القصاصات من الورق التي تنفع لإيقاد النار" [7]

وقوله أيضا:

" دعنا من هذا وقل ما سبب هذه الزيارة المبكرة ؟ " [8]

وهذه توحي بالصورة النفسية للكاتب.

ونراه يعمد إلى أسلوب السخرية عن الأوضاع القائمة:

" قلت: لولم أعرفك حمارا لقلت أنك أتيت تستدين مني بعض النقود " [9]

ن الكاتب يسخر هنا من وضعه كمفكر وأديب حيث يعيش في ضنك مادي ومع هذا فسخريته هادفة وناجحة استوحاها من ظروف حياته وظروف مجتمعه مثل قوله:

" إنني لم أر حتى الآن حمارا شرقيا تزوج بأتان غربية ولكنني أعرف كثيرا من الرجال الشرقيين تزوجوا من نساء أجنبيات ولم أر بينهم من استطاع أن يعرب زوجه الغربية وقليلون جدا الذين لم تفرنجهم أزواجهم." [10]

وقوله أيضا:

" .... فإن الشائع في هذه الأيام هوزواج المثقفين بأجنبيات،وأي مانع في أن يتزوج حمارنا المثقف بأتان أجنبية تليق بمقامه المحترم " [11]

كما نجد سخرية على لسان حماره " لم أحصل على عمل يشرفني " [12]

فلسخرية الأديب رضا حوحوإذن طابع خاص تتميز فهي مستمدة من الواقع المر وتهدف إلى تحسين الأوضاع. وتلائم شخصية الكاتب التي تمس بالمرارة والأسس على ما هوسائد والقارئ لهذه المقالة القصصية يلمس بأن الكاتب يلجأ إلى استخدام الجمل القصيرة في أسلوب الكتابة،السريعة والقليلة الكلمات قوله:

" قال: جئت أستشيرك في أمر مهم
قلت : لعل هوعمل جديد
قال: لا لم أعثر حتى الآن على عمل يشرفني
قلت إذن ماذا ؟
قال: ما رأيك في الزواج " [13]

وهذا الاعتماد على الجمل القصيرة يدل على نفسية الكاتب المتوثبة وسرعة تفكيره ودقته وصرامته في تحديد الحقائق،ونلاحظ هذه الجمل السردية القصيرة في الكتابة.

" جاءني حمار الحكيم مبكرا هذا الصباح .. فتعجبت من ذلك لأنني أعرفه دقيق المحافظة على النظام والمواقيت... وهولا يتخلف دقيقة واحدة ..." [14]

فإننا نلحظ هنا الكاتب وكأنه يريد خطة متكاملة تبدأ بخبر،فتحلله وتعلله وتصل إلى نتيجة نلاحظ هذا في محطات عديدة من مقالته- حيث نلحظ نفس الترتيب والنظام في تحديد الجمل وتنسيقها وورودها لهذا القصر والتقريرية في قوله مثل:

" المرأة على وجه العموم تهيم بحب التسلط على الرجل وهي تبذل ما في وسعها ذلك،لا تعرف الملل والكلل وهي على وجه العموم أيضا عديمة الثقة بأقواله

وأفعاله فهي تنفر من الامتثال لأوامره وتعاليمه ونصائحه إلا إذا خطرت إلى ذلك.."[15]

كما نلاحظ بأن الكاتب يعمد أحيانا إلى مواقف خطابية يحاول بها أن يؤثر في قارئه ويقنعه بما يقول كقوله:

" ... هذا عندكم يا أستاذ ... أنتم البشر لأن أغلبكم يحمل الرسالة التي خلق من أجلها فقد تغلب عليكم الأنانية وحب الذات." [16]

إن الكاتب في هذه المحطة يقف على المنبر ليخطب ويقرر ليؤثر ويمتلك اهتمام قارئه.

أما جمل الكاتب نراها محكمة النسيج شعرية البناء معبرة بوضوح عن حقائق دقيقة تعبر عن المعاني الكلية. قال:

".. أبدا.. ليس هذا الأمر من الأنانية في شيء فإنني لم أوثر نفسي،وإنما أردت أن أكون كجميع أبناء فصيلتي ومعظم ما هنالك أني أحسست بنقص في شخصيتي أحببت إتمامه" [17]

فنحن نحس بتظافر الجمل السردية المحكمة على تأدية المعنى الذي يهدف إليه الكاتب في النهاية وعبارات الكاتب مركزة في المعنى دقيقة في التعبير نلحظ هذا من خلال مقاله: "أما نحن فلا يجهل أي حمار ابن حمار." [18] فهذه عبارة مركزة كثيفة المعنى على الرغم من قلة كلماتها. "..فإنك لا تجد في فصيلتنا من تحدثه بأنه أفضل من الحصان لولم ينكره الزمن؛ وإنك لا تجد في فصيلتي من يتمنى علفا من القمح.." [19]

• إن الكاتب يريد أن يقول إنه يجب أن يعرف كل إنسان حقيقة وضعه وظروفه الخاصة فلا يتطلع إلى الأعلى لأنه سيتعب.

كما نلاحظ طريقة خاصة في تركيب جملة بحيث يطوها كما يريد للتعبير عن المعاني العميقة ببساطة متناهية.

"لم أر بينهم من استطاع أن يعرب زوجته الغربية وقليلون جدا الذين لم تفرنجهم أزواجهم" [20]

فإذا ما خلصنا إلى المحسنات البديعية أواللفظية فإننا نجد الكاتب يستعملها في مقاله بعفوية كقوله: "وتبغض الراضي بحكمها وتحب الثائر عليها المتمرد عنها" [21].

فقد وظف هذه المقابلة لتصوير تقلب المرأة وتذبذبها الآني السريع.

"تريده ضعيفا وتبغض ضعفه،فهي تجد متعة في التغلب عليه لكنها تجد حسرة في استسلامه إليها،لأن بهذا الاستسلام ينهار في قلبها ذلك الحصن الذي كانت تتمتع بحمايته،وترتاح إلى قوته وجبروته" [22]

هذه مقابلات اعتمد عليها الكاتب ليظهر التناقض الموجود عند المرأة التي لا تستقر في رأيه على قرار. كما نراه يوظف الطباق في قوله:

"وأفرق بين الخبيث والطيب" [23]

كما وظف الكاتب الصور السجعية بطريقة ذكية في قوله:

".. فهي إذن،تمن وتتدلل وما عليه إلا أن يرضى ويتذلل أوحدث الخلاف وساد الشقاق وكان بعد الزواج الطلاق" [24]

فجاءت هذه السجعة ملائمة للموقف العاطفي الذي نجده مجسدا في الأسلوب،وإذا ألقينا نظرة عن موقف الكاتب تجاه المرأة فإننا نجده ينظر إليها من الناحية الإصلاحية بعيدة نوعا ما عن المنطق وربما يعود هذا إلى الفترة الزمنية التي كتب فيها هذه المقالة.

**اللغـــــة السرديـــة:**

تعتبر اللغة المادة الأساسية للكتابة الأدبية ولذلك يجب أن :تكون عظيمة الشأن. رفيعة القدر،كريمة المكانة،عالية القيمة: لدى كل الأمة،لأنها هي مضطرب تاريخها وحضارتها،وجواب رقيها وانحطاطها. ومن أجل ذلك كله يجب أن نعير أهمية بالغة للغة الإبداع،وذلك على أساس أنها هي مادة هذا الإبداع وجماله ومرآة خياله فلا خيال إلا باللغة.."[25]

وتعد لغة الكاتب تعبير صادق عن خلجات نفسه وتنوع أحاسيسه واختلاف أفكاره فهي الصورة العاكسة لأعماقه وخفاياه.

وكاتبنا نراه منذ البداية يوظف ألفاظا تبرز بوضوح عالمه النفسي الخاص وتفكيره الواضح يطالعنا بداية المقال بنفسية واضحة المعالم سريعة الحركة وعقلية سريعة التفكير منظمة لخطواته،دقيقة في تفسير المواقف. حاسمة في تقرير البديهيات،نلحظ هذا من خلال توالي الجمل الفصلية وأزمنة الماضي.

فالفعل يدل على الحركة والحياة،وبناؤه للماضي يدل على تقرير الحقائق بث فيها وانتهى الأمر. فجاءت حاسمة سريعة مثل: جاءني حمار الحكيم.. فتعجبت من ذلك.. لأني لا أعرفه.. وهولا يتخلف.. فأوجست خيفة.. وغرقت..وما كاد يجلس حتى ابتدرته: نستطيع أن نحدد أن الكاتب اعتمد كثيرا على الجمل الفعلية والأفعال الماضية أحيانا وأفعال الأمر أحيانا أخرى مما يدل على نفسيته المتوثبة وطبيعته الديناميكية وعقليته الحاسمة.

"قال: فإن كل ثروتك هذه القصاصات من الورق التي لا تنفع إلا لإيقاد النار.
قلت: حقا ما تقول.. فلا تنفع عصارة أفكاري إلا لإيقاد النار وهي مع ذلك كل ثروتي وعزائي:[26] نجد هذا التوثب في جمل الكاتب وبالتالي فهي تدل على ما يدور في نفسه وما يعتمل في داخله،فمجيء الحمار مبكرا لا يوحي بالضرورة إلى استدانة النقود،ولكن الكاتب قلق النفس هش الإرادة فتلقط بما كان يدور في قرارة نفسه وما يعانيه مباشرة وكأنه كان ينتظر الفرصة ليقول لنا هذه الحقيقة التي ترهقه وتؤثر عليه.
فهذه الجملة أفصحت عن الحرارة العميقة التي يحسها ويشعر بها،فالكاتب كما نلمس يحس بعدم تقدير الناس للفكر وهذا يحز في نفسه ويأسف له،فالناس لا يهتمون كما يرى إلا بالماديات،أما الفكر –عصارة أفكاره– فإنه لا ينفع إلا لإيقاد النار،وما أحقرها من مهمة أعطيت لعصارة الفكر.

وكان من الطبيعي أن تكون الأهمية كل الأهمية للفكر فيعتبر الثروة العظمى لا يحتقر هذه الطريقة. ونلمس هذا الأسى وهذه الحسرة من خلال الجملتين السالفتين. فنلمس المرارة العميقة والحزن الكبير والألم السحيق مع الاستسلام الهادي لهذه الحقيقة،فنفسية الكاتب تبدوقانعة بثروتها في قوله "ومع ذلك فيها ثروتي" مؤمنة بهذا السبيل ومصرة على إكماله لأن الطريق الملائم لعقليته ونفسيته فيسود الهدوء وتعود السكنية إلى نفسه في قوله "عزائي"
يحاول أن يتخلص من هذه المرارة التي تلفه كلما تذكر حالة الفكر في بلادنا.

ويعتمد الكاتب على أمر فيه من القوة والحزم مما يدل على رغبته القوية في تغيير دقة الحديث "دعنا من هذا". ثم في نبرة آمرة حازمة لا تحتمل النقاش: "قل مٰا سبب هذه الزيارة."

إننا نلمس من جديد هذه السرعة في التفكير وإعطاء الآراء حتى نشعر وكأن الكاتب كان ينتظر مثل الأسئلة ويحضر إجاباتها ولكن الواقع أن الكاتب يعيش الحياة ونلمس جوانبها بقوة الملاحظة والبديهية فهويدلي برأيه ببساطة فهويكون رأيه الحاسم وانتهى الأمر: "رأيي في الزواج هورأي برنار دشو" [27]

ونلمس من خلال هذا الجواب السريع كأنه يريد أن يتخلص من هذه القضية التي يبدوأن له فيها موقفا محددا من الزواج يدفعه إلى الهروب،ولكن إجابة الحمار تبين أن الكاتب مضطر لتناول هذا الموضوع مهما كان الأمر،فهوأمر حيوي ومرتبط بالحياة الاجتماعية والإنسانية: "أنا أقصد زواجي. ما رأيك في زواجي أنا فقط حفل ببالي ألا أبقى عازبا فإن ذلك يجر عليّ الشبهات ويحيط من قيمتي كحمار اجتماعي،ثم لابد لي من خلق صالح." [28]

إذن لا مناص من معالجة الأجر فالفكرة ملحمة والكاتب يحاول أن يقنعنا بأن هذا الموضوع هام ولابد من معالجة مستقبل اجتماعي لأمة تحاول الحفاظ على أصالتها وإبعاد التشويه عنها. لذلك فالزواج ضرورة حتمية وبقاؤه عازبا يجر عليه الشبهات ويحيط من قيمته كحمار اجتماعي . فكلمة اجتماعي هنا لها دلالتها الفكرية. فالكاتب يعتبر الزواج أمرا مطلوبا للحفاظ على المتجمع والغاية والهدف منه يبرزها الكاتب بوضوح في قوله "خلف صالح يخلفني" فهذه الجملة دلت على إصرار الكاتب القوي على ضرورة المحافظة على بقاء المجتمع الحقيقي والمتأصل.

إننا نلمس تحولات نفسية الكاتب مع أن الفكرة ملحة وضرورية،إلا أنه متردد ومتذبذب. هل يقبل على خرق الموضوع أم يترك مع العلم بأن أهميته بالغة عبر هذه الحيرة بقوله:

"مكثت برهة مشدوها" [29] فالكاتب إذن خائف متردد،والأمر ليس بهذه البساطة،فمع اقتناعه بأهمية الزواج الاجتماعية إلا أنه على المستوى الفردي لم يستطع أن يكون رأيا محددا.أيهما أحسن الزواج أم العزوبية.

يقول: "لم يستقر لي رأي أيهما أحسن.. " [30] وكأنما أراد الكاتب أن يقنع نفسه بحاجة الفرد للزواج قبل أن يقنعنا به.

ومع هذا نلمس أن الكاتب غاضب على بني البشر لأنهم لا يقدرون المسؤولية فكل منهم يبحث عن نفسه،ونلمس هذا الغضب في استعماله كلمة "أنانية" هذه الكلمة التي رددها في هذه الفترة ثلاث مرات. مما يؤكد غضب الكاتب على الناس ويأسه منهم لأنهم مشغولون بذواتهم عن المصلحة العامة. يعبر عن هذه الحقيقة بقوة وعنف الرجل الغاضب،وفي نفس الوقت اليائس من هؤلاء الذين يغرقون في الأثرة وحب التراث.

فيرجوه أن يؤجل المسألة برفق في البداية: "ألا يمكنك تأجيل هذه المسألة" [31] مستعملا صيغة الرجاء،والموحية برغبة الكاتب في التخلص من هذا الموضوع ولوإلى حين.

ولكن إصرار صاحبه يفطره إلى إنهاء الأمر الذي ملّه بجزم وإصرار،فيستعمل أفعال الأمر السريعة الحركة فيقول:

"هذا الجدل البيزنطي وقل لي هل وقع اختيارك على حاجة الحسب والنسب" [32] تهدأ نفسية الكاتب وتتوضح فكرته في ذهنه فيحاول أن يلج بنا في قلب القضية الأساسية والتي يريد الوصول إليها. ومع هذا فهولا يتخلص من الحدة والعنف

والملل وكأنه أن يتخلص بسرعة ويبدوهذا في تساؤله: ومن قال لك أني اشتغلت مكاريا...؟

إذن ماذا؟.. خذ لك أي أتانا..

ولكنه يأبى للفكرة.. ونفسه وعقله يلحان عليه بمعالجتها يقول:

"لا تنسى أني لست كبقية الحمير فأن أتمتع ببعض الثقافة" [33]

وكأنه أراد أن يتخلص من كل ما عنده مما تعب في حمله يعد طول تردد وحيرة وتذبذب فقالها سرعة وحزم واستعمل فعل الأمر الحازم الصارم والموحي بالحركة السريعة كعادته دائما "فأسلك إذن مسلك المثقفين.. تزوج بأتان أجنبية."

هنا يصل إلى البؤرة التي يريد أن نصل معه إليها فلقي إلينا إليها بسرعة خائفة فهوقد تململ من حمله الثقيل،ولكنه لا يستطيع أن يتلخص من المرارة التي يحس بها تجاه سلوك المثقفين الذين ينتمي إليهم. فيقرر حال كل مثقف الذي ينتهي عادة بالزواج من أجنبية ويأس وألم وحسرة،والهدف منه يبرزها الكاتب وألم وحسرة يقرر المآسي الناتجة عن هذا الزواج وآثاره على المتجمع وعاداته وأخلاقه وتفكيره حيث من يتزوج أجنبية صار عبدا لها،ولإدماجها في كيان المجتمع قرر هذا بهدوء الواثق مما يقول مما تقول وفكر واضح وعقلية متيقظة تشجع الملاحظة الدقيقة والوصول إلى الناتج المعقولة.

ودائما فكرة الزواج بالأجنبيات تملأ ذهن الكاتب – وبحسرة المواطن الغيور على مجتمعه وبهدوء المحلل الاجتماعي وعناية المفكر الرزين يبدأ في بحث الأسباب التي تجهل الزواج بالأجنبيات خطرا يهدد المجتمع لنراه يقرر الحقائق بثقة: "هناك أسباب عامة.. وهناك أسباب خاصة.. [34] الأمر بسيط جدا وإليك بيانه "هات" لثقة ودقة في الملاحظة والاستنتاج.

تبدأ نفسية الكاتب في التململ والغضب ونلمس ثورته المكتوبة على المرأة وضجره الواضح من سلوكها وتصرفاتها،فنحس بعنف هذه الثورة عليها واحتقاره لسلوكها،فيردد معنى السلطة بترتيبات مختلفة أحيانا يقول: حب المرأة للسلطة،وأخرى يقول نتسلط على الرجـــل،وثالثه: لسلطاتها،فالمرأة في نظره إنسان متسلط متقلب الأهواء .

وتبلغ ثورة الكاتب الذروة في استعماله لجملة: جرثوم الأنانية في المرأة فاجأته جرثوم للأنانية أعطى الكلمة معنى المرض الضار الذي يجب التخلص منه،وللأسف المرأة مصابة بهذا الجرثوم الخطير،ولا تطيع التخلص منه ولذلك نرى تصرفاتها شائنة متقلبة مع الرجل.

وتبدوثورة الكاتب على هذه المرأة المتقلبة من خلال العلاقات الخفية التي نجدها في جمـــله،حية يقول: "مع أنانيتها تشعر بضعف عزيزي فيها"[35] فيزداد لكلمة الأنانية المعبرة عن التسلط والقوة إلى جانب الضعف الطبيعي والاستسلام الخاضع،عبّر بوضوح عمّا يريده الكاتب من المرأة.

نلمس هذا النماذج في تعبير الكاتب عن هذا الموقف في ربطه بحمله وتنسيقها "مني تريده ضعيفا وتبغض ضعفه.. نجده معه في التغلب عليه لكنها تجد حسرة في استسلامها لها.

فهذا المد والجزر بين ألفاظ ومعاني الجمل وظفه الكاتب لخدمة غرضه: وصف طبيعة المرأة وشعوره الشخصي إزاء هذه الطبيعة.

يحضي الكاتب بثقة في تحليل الأسباب التي تجعل الزواج من الأجنبية خطرا على المجتمع منغصا للحياة الفردية فيقرر بأسلوب المطلع على خفايا الأمور أن الزواج من أجنبية نهايته الطلاق إضافة إلى الصفات التي عرفناها في المرأة نواجه بكونها ابنة الحاكم السيد مما يجعل في سلوكها استعلاء.

ولتأكيد هذه الحقائق يعتمد إلى استخدام أسماء التفضيل تارة لتوحي بحقيقة ما يريد الوصول إليه حيث أنها ترى نفسها (اسمي منه وأرقى منه) وتارة أخرى يقابل بين جملة في المعنى فيقدم الصورة المطلوبة.

وإذا ما رجعنا إلى استخدام الكاتب لتقنية الرواية السردية فإننا نجده يستخدم "الرؤية من الخلف" . "وتستخدم عادة في الروايات الكلاسيكية. وتتميز السارد فيها بكونه يعرف كل شيء عن شخصيات عالمـــه،بما في ذلك أعماقه النفسية،مخترقا جميع الحواجز كيفما كانت طبيعتها،كـــأن ينتقل في الزمان والمكان دون صعوبة ويرجع ويرفع أسقف والمنازل ليرى ما بداخلها،أويشق قلوب الشخصيات ويغوص فيها ليتعرف على أخفى الدوافع وأعمق الخلجات،تستوي عنده في ذلك جميع الشخصيات على اختلاف مستوياتها إنها بالنسبة له ككتاب يطالعه كما يشاء" . [36]

وحتى لغة الحوار التي أوردها الكاتب فجاءت معظمها في صيغة " قال " و" قلت " أي أن الحوارات في حد ذاتها نقلها لنا السارد،ولا نكاد نلمس الحوار المباشر بين الحمار والكاتب مثل:

" قال – إنني لم أر حتى الآن حمارا شرقيا تزوج بأتان غربية ..." [37]

" قال – هناك أسباب عامة تتعلق بأخلاق المرأة ..." [38]

" قال – المرأة على وجه العموم تهيم بحب التسلط على الرجل ...."[39]

ونستطيع القول بالنسبة للغة الكاتب إن لديها دلالات وإيحاءات وإسهامات في عرض فكرة الكاتب لفهم النفسية والتعبير عن التجربة الحيوية الذاتية.

فحين نطلع على مقال رضا حوحونجده يعالج ظاهرة اجتماعية لها خطرها على مقومات الشخصية الجزائرية ونلمس من تتبعنا لها أنه لا يلوم من دفعتهم الظروف للزواج بالأجنبيات ولكن تركيزه كان على المثقف....

وطبيعة الموضوع الشائكة أملت على الكاتب خطة بعينها حيث اعتمد على إيراد الحقائق وطرح قضايا وحاول تحليلها والوصول إلى نتائج من خلالها وجاءت كلها مطبوعة بشخصية الكاتب ونظرية العامة للحياة.

وقد بدأ الكاتب بمقولة رآها ضرورية للوصول إلى ما يريد قوله فرأيناه يخبرنا بقدوم حمار الحكيم إليه مبكرا،وهذا يوحي بضرورة وجود قضية هامة دعته إلى هذا التعرف غير المعهود في سلوكه.

هذه المقدمة جعلتنا نترقب ما سيحدث،وفعلا علمنا بأن هناك قضية هي نفسية زواج هذا الحـــمار،هذه القضية التي استعملها الكاتب جسر الوصول إلى القضية الجوهرية محور المقالة وهي الزواج بالأجنبيات والتي سيعلق عليها كل الأفكار التي أراد أن يعبر عنها.

تعبر عن قضايا اجتماعية ونفسية كظاهرة التناقض في طبيعة المرأة وظاهرة الأنانية في الطبيعة البشرية،وتعلق الإنسان بالماديات،كذلك قلق الإنسان وبرمه بالحياة وعرض لهذه القضايا أثناء محاولة تحليلة وإبراز القضية الأساسية. وهذه الظواهر التي يتناولها الكاتب لا تبدوبمظهر الجدة والطرافة في عرفها ولا في علاجها بقدر ما تظهر قدرة الكاتب على إبرازها بدقة في النفاذ إلى عيوب المجتمع ثم تجسيدها وهويراها بوضوح ومن هنا يشير إلى ضرورة علاجها لا تهديمها بطريقة النصح أوالتحذير.

فهوهنا رصد الظاهرة وحاول تحليله ظاهريا وباطنيا،وكل هذه القضايا وظفها لخدمة عرضه الأساسي،ففي الزواج بالأجنبيات حاول أن يقنعنا بالأسباب التي تجعله لا يحبذ هذا الزواج الذي له أثره الكبير على الأسرة وخطره على المجتمع،وهذه الفكرة بنى عليها أطراف المقالة فعالجها انطلاقا من مجتمعه ولكننا نلمس بأنها قضية إنسانية لها خطرها على المجتمع أينما كان. فالمرأة الطرف الهام في هذه القضية وصف طابعها العام الموجود في كل زمان ومكان وهذا جعل قضيته إنسانية مع أنه انطلق من مبدأ محلي وحقيقة واضحة وهي مجتمع مستعمر وزواج المثقف من أجنبية مع هذه الخصوصية استطاع أن يلم بأجزاء أفكاره المتناثرة للتعبير عن حقيقة إنسانية عامة ونلاحظ بأن التحليل والأفكار والقضايا جاء مطبوعا بشخصية الكاتب ومعبرة أن آرائه الذاتية المأخوذة عن تجاربه الخاصة.

وفي الختام نستطيع القول إن الكاتب رضا حوحوقد استفاد استفادة أدبية من الكاتب توفيق الحكيم في توظيف صورة الحمار،وخلق حوار بين شخصية الكاتب وشخصية الحمار الذي تحول إلى رجل محاور بطرح الأفكار ويناقش،وهوبهذا يتناص في الكتابة والإبداع مع حمار الحكيم ذلك إذا اعتبرنا أن التناص هوعملية امتصاص لنصوص أخرى عن طريق المناقصة أوالتعضيد والتكثيف التمطيط..[40].

# مراجـــع:

1- أحمد رضا حوحو: مع حمار الحكيم،المطبعة الجزائرية – قسنطينة،ص 8.
2- المصدر نفسه ص 10.
3- المصدر نفسه ص 44،45.
4- المصدر نفسه ص 47.
5- المصدر نفسه ص 44.
6- المصدر نفسه ص 45.
7- المصدر نفسه ص 45.
8- المصدر نفسه ص 45.
9- المصدر نفسه ص 44.
10- المصدر نفسه ص 49.
11- المصدر نفسه ص 48.
12- المصدر نفسه ص 45.
13- المصدر نفسه ص 45.
14- المصدر نفسه ص 44.
15- المصدر نفسه ص 49.
16- المصدر نفسه ص 46.
17- المصدر نفسه ص 47.
18- المصدر نفسه ص 46.
19- المصدر نفسه ص 46.
20- المصدر نفسه ص 49.
21- المصدر نفسه ص 48.
22- المصدر نفسه ص 50.
23- المصدر نفسه ص 47.
24- المصدر نفسه ص 50.
25- د. عبد المالك مرتاض: في نظرية الرواية. سلسلة عالم المعرفة الكويت. 240. 1998،ص 111.
26- أحمد رضا حوحو: مع حمار الحكيم،ص 45-46.

27- المصدر نفسه ص 45.
28- المصدر نفسه ص 45.
29- المصدر نفسه ص 45.
30- المصدر نفسه ص 45،46.
31- المصدر نفسه ص 46.
32- المصدر نفسه ص 48.
33- المصدر نفسه ص 47.
34- المصدر نفسه ص 49.
35- المصدر نفسه ص 50.
36- المصدر نفسه ص 50.
37- أبوالطيب عبد العالي: مفهوم الرؤية في الخطاب الروائي . آراء وتحليل. مجلة عالم الفكر الكويت. 1993،ص 40.( اعتمد الكاتب رأي الباحث تودورف).
38- أحمد رضا حوحو: مع حمار الحكيم . ص 49.
39- المصدر نفسه،ص 49.
40- محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري . استراتيجية التناص. المركز الثقافي العربي ط2. 1986. ص 121.